اللاإسلامية... الخطر الذي تخفيه أسطورة 'اللاسامية'!

25-10-2003

يكمن في "فزاعة" "اللاسامية" التي تعرف الأقلية اليهودية في العالم كيف تستخدمها في وجه باقي الشعوب، خطر"اللاإسلامية"، فنزعة معاداة الإسلام أصبحت اليوم تتمتع بقبول واسع بمبرر محاربة الإرهاب والتعصب الديني، وهي تمس مقدسات وكرامة مليار وثلاثمائة مليون مسلم موزعين في العالم، وليس عشرة ملايين نسمة كما هو حال اليهود، هذا الخطر هو ما يستدعي التفكير ويستدعي الحملات، لأنه قائم على معطيات ووقائع حقيقية، لا مجرد أكاذيب ومزاعم تركب عليها أسطورة "اللاسامية" من أجل الخداع.

بقلم إدريس الكنبوري

انطلقت زوبعة كبيرة ضد تصريحات رئيس الوزراء الماليزي "محاضير محمد" عن سيطرة اليهود على العالم، والتي وردت في كلمته أمام القمة العاشرة لمنظمة المؤتمر الإسلامي التي انعقدت يومي 17و18 أكتوبر الجاري في ماليزيا، لا يظهر أنها ستنتهي قريبا، لأنها لا تزال في بداياتها الأولى قبل التسخين. لقد منحت تلك التصريحات فرصة سانحة للآلة الدعائية اليهودية عبر مختلف بقاع العالم من أجل التذكير الكاذب والمخادع بمظلومية اليهود، وبعداء الإسلام والمسلمين لهم، والأسوأ من ذلك والأفظع منه أن الآلة الإعلامية في هذه المعركة ستكون السند القوي للآلة العسكرية الإجرامية للحكومة الصهيونية في فلسطين المحتلة، ووسيلة للتغطية على الجرائم الإسرائيلية ضد الفلسطينيين.

وهذه التصريحات أشبه برمي حجرة صغيرة في بركة راكدة، حركت الساكن وكشفت المستور في العالم الإسلامي، إذ أن ردود الفعل عليها وصمت الدول الإسلامية، أبانت عن حالة الضعف الكبير الذي ينخر الأمة والاستهانة التي تقابل بها من طرف الغرب والولايات المتحدة الأمريكية. فقد وردت تلك التصريحات في اجتماع قمة ضمّ 57 دولة إسلامية، تمثل ما يناهز مليارا وزيادة من الأنفس، لكن العالم كله لم ير من ذلك الاجتماع الحاشد سوى تصريحات "محاضير محمد"، كأن القمة لم تنعقد وكأنها لم تخرج ببيان، وهذا معناه أن العالم كله لم يعد يعبأ بما يقوله المسلمون وما يجتمعون عليه، وليقولوا ما يشاؤون، لكن ليسكتوا عن التعرض لليهود بأي سوء، بل إن الصحف العربية ووكالات الأنباء والفضائيات لم تركز إلا على تصريحات "محاضير محمد"، بينما كان ترتيب ما خرجت به القمة في المرتبة الثانية لقلة أهميته، ونظرا لوجود بيانات لقمم سابقة لم تنفذ، ومن ثم لا حاجة إلى بيان جديد.

غضب وصمت ومجازر

انطلقت حملة قوية في كافة أنحاء العالم الغربي ضد النزعة "اللاسامية" مباشرة بعد إطلاق تلك التصريحات، وتم وصف "محاضير محمد" بأقذع النعوت الجاهزة في مثل هذه الحالات تبعا للقاموس العنصري الصهيوني الموجود فوق مكاتب الصحف الغربية والمؤسسات الإعلامية الخاضعة للنفوذ اليهودي، وبسرعة ملفتة للنظر تم نبش القبور وإخراج ضحايا النازية الألمانية ليكونوا شهودا، وأحيل على"الهولوكوست" المليئة بالخرافات والترهات، وكانت شخصية "محاضير" والمقام الذي صرح فيه بما صرح أحد الأسباب الرئيسية التي زادت في إشعال نار الحملة، إذ هو ليس شخصا عاديا بل رجل دولة من أهم الدول الإسلامية التي حققت نموا اقتصاديا وتقدما تقنيا أهلها لتكون في مصاف النمور الآسيوية، والمقام الذي قيلت فيه تصريحاته هو قمة منظمة المؤتمر الإسلامي، ووظف اليهود ذلك ليقولوا للعالم أجمع بأن رجال الدولة المسلمين معادون لليهود ولدولتهم في فلسطين، وأن المنظمة تجمع في قلبها الأفكار اللاسامية، وزاد البعض فقال بأن "السلام" غير ممكن مع مثل هؤلاء، كأن السلام كان قادما في الطريق فاعترضه "محاضير محمد".

وقد استغلت الحكومة الصهيونية هذه الحملة التي أعادت تعاطف العالم الغربي معها، فأعلن رئيس وزرائها "أرييل شارون" أنه مصمم على إتمام بناء الجدار الواقي الذي يقطع أوصال الضفة الغربية ويجعل إمكانية دولة فلسطينية مستقبلا(إذا صدقنا خارطة الطريق الأمريكية!) مستبعدة، وعلى طرد رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية ياسر عرفات، وشن مجازر وحشية بين الفلسطينيين في قطاع غزة وهدم عشرات المنازل، ودفع بالجيش الصهيوني إلى غزو رام الله وبعض مدن الضفة الغربية، في ظل صمت مريب من الدول الأوروبية والولايات المتحدة(الراعي الأول لمسلسل التسوية!). وبطريقة أقرب إلى الخداع تم التصويت في مجلس الأمن يوم الأربعاء الماضي على قرار يدين بناء إسرائيل للجدار، لامتصاص الغضب العربي والإسلامي ومسح جرائم "شارون" الأخيرة، مع أن القرار ليست له قوة إلزامية ولن يخرج إلى حيز التنفيذ، وعوض العرب عن صمتهم على الحملة ضد رئيس الوزراء الماليزي بالتصفيق للقرار، أما "شارون" فقد تحداه قبل أن يجف المداد الذي كتب به، وقال إن بناء الجدار سيستمر لأن أمن إسرائيل فوق أي قرار.

التوظيف اليهودي وإحصاء الأرباح

أدركت الدولة الصهيونية جيدا أهمية توقيت المعركة وضرورة الاستفادة القصوى منها، بادرت إلى ذلك في اتجاهين: الأول أنها شنت

حملة موازية على الرئيس الفرنسي "جاك شيراك" وفرنسا، متهمة إياه بأنه لم يدن تصريحات "محاضير محمد" المعادية للسامية، وأنه اعترض على تضمين بيان المجلس الأوروبي الذي أنعقد في "بروكسيل" يوم الجمعة الأخير فقرة تشجب هذه التصريحات، بالرغم من أن الرئيس الإيطالي "سلفيو برلسكوني" الرئيس الحالي للاتحاد الأوروبي عبر باسم هذا الأخير عن احتجاجه عليها، وبالرغم أيضا من أن "شيراك" بعث إلى "محاضير محمد" برسالة يدين فيها تصريحاته، ونشرت صحيفة"معاريف"العبرية صورة "لشيراك" وقد كتب أسفلها "الوجه اللاسامي لفرنسا"، وعبرت وزارة الخارجية الإسرائيلية عن استيائها لموقف الرئيس الفرنسي، وجاءت النتيجة سريعة بحيث تم تشكيل لجنة فرنسية ـ إسرائيلية مختلطة لدفع التعاون بين الطرفين. فقد وجدت إسرائيل في ذلك مناسبة لابتزاز فرنسا، بعد الأحداث التي شهدتها بعض المدن الفرنسية قبل أشهر خلال الحرب على العراق وتمثلت في مقتل بعض اليهود بينهم رجل دين وإحراق بعض المعابد اليهودية، وتنظيم حملة في بعض الجامعات والمعاهد الفرنسية تدعو إلى مقاطعة إسرائيل علميا وأكاديميا، وشرعت إسرائيل في إقناع اليهود الفرنسيين بالخطر الذي يحدق بهم وضرورة الهجرة إلى الدولة العبرية، وهو ما أدى إلى مضاعفة عدد اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل في العام الجاري مرتين، حيث هاجر 2326 يهودي مقابل 1156 في العام الماضي، وعبر الحملة الأخيرة وتشكيل لجنة تعاون، تكون إسرائيل قد حققت الأهداف المرسومة لابتزاز فرنسا.

تمثل الاتجاه الثاني في التوظيف اليهودي للحملة على تصريحات "محاضير محمد"، في الزيارة التي قام بها وزير الخارجية الإسرائيلي "سيلفان شالوم" يوم الأربعاء إلى ألمانيا، وهي محطة مهمة في دفع هذا التوظيف إلى أقصى حده الممكن، فألمانيا مهد أسطورة "الهولوكوست" أو المحرقة اليهودية على يد النازيين في الحرب العالمية الثانية، وهي الأسطورة التي يرتكز عليها اليهود والدولة الصهيونية في المطالبة بدعم إسرائيل وحفظ أمنها، وألمانيا هي الدولة الأوروبية الأكثر تمويلا ودعما عسكريا لإسرائيل بعد الولايات المتحدة بسبب دعاوى عقدة "الإبادة النازية لليهود" التي لا يزال يتحمل مسؤوليتها كل فرد ألماني حتى الذي لا يزال في بطن أمه. ولم يكن مستغربا أن تكون أولى تصريحات الوزير الإسرائيلي هي التذكير بهذه الأسطورة، حيث قال إن التاريخ بدأ يتعرض للنسيان ـ وهو يعني تاريخ معاناة اليهود!ـ، مطالبا بإعادة التذكير به للأجيال الحالية، مما يشير إلى أن اليهود سيعمدون للدعوة إلى المزيد من تكريس هذه الأسطورة في المناهج الدراسية الألمانية والغربية عموما لكي لا يتم نسيانها. ولكن المحطة الألمانية تمثل أكثر من ذلك منبرا للمطالبة بدفع التعويضات لليهود عما يزعمون أنهم تعرضوا له إبان الحقبة النازية في ألمانيا، ولا شك أن زيارة شالوم لبرلين كان وراءها الرغبة في تكثيف التعاون العسكري بين البلدين الذي يوجد في وضعية جيدة بالنسبة لإسرائيل.

الحضور الإسلامي... الغائب!

كشفت المعركة قضية مهمة من خلال تصريحات "محاضير محمد" ألا وهي غياب الصوت الإسلامي والعربي في كل ما يجري، والظاهر أن العرب والمسلمين قد وجدوا أنفسهم في حرج كبير بسبب ما جرته عليهم هذه التصريحات. فهم لم يستطيعوا توظيف المعركة لصالحهم، وقيادة حملة إعلامية دولية، ليس حول النفوذ اليهودي في الغرب الذي لا يحتاج إلى التذكير به، ولكن حول ازدواجية الغرب فيما يتعلق بالتعاطي مع قضايا مثل هذه باسم ذم العنصرية مثلا أو حقوق الإنسان أو العداء للديانات والعقائد، مع أن تصريحات "محاضير محمد" لم تكن واحدة منها، بقدر ما كانت تشخيصا لحالة قائمة هي النفوذ اليهودي في الغرب الذي عرى حقيقته الغربيون أنفسهم قبل غير الغربيين.

لقد تزامنت الحملة الغربية على "محاضير"، ومن خلاله على المسلمين، مع تصريحات "وليام بويكين"، أحد مسؤولي وزارة الدفاع الأمريكية الكبار الذي عينه الرئيس الأمريكي في الأسبوع الماضي في مهمة ملاحقة "أسامة بن لادن" و"صدام حسين"، حيث قال إن السلمين"يعبدون وثنا"، وأن"المسلمين المتطرفين يكرهون الولايات المتحدة لأن جذورنا مرتبطة بالقيم اليهودية المسيحية"، ولكن هذه التصريحات لم تتعرض للانتقاد، ومرت باعتبارها حقيقة تابثة في الولايات المتحدة والغرب، بينما تم التعامل مع تصريحات رئيس الوزراء الماليزي على أنها مس بالمقدسات فيما يخص دولة استيطانية تدوس هذه المقدسات يوميا على مرأى ومسمع من العالم.

وقد شهدت الفترة ما بعد تفجيرات 11 سبتمبر 2001 أقسى الحملات عنفا ضد الإسلام والمسلمين، قادها قساوسة أمريكيون وأوروبيون مثل جيري فالويل وبات روبرتسون وغيرهما، وصلت إلى حد المس ، ولم تتحرك المنظمات الغربية والغيورون على حقوق الإنسان واحترام أتباعpبالنبي الديانات السماوية، كأن هذه المبادئ غير صالحة للتطبيق سوى على اليهود.

يكمن في "فزاعة" "اللاسامية" التي تعرف الأقلية اليهودية في العالم كيف تستخدمها في وجه باقي الشعوب، خطر"اللاإسلامية"، فنزعة معاداة الإسلام أصبحت اليوم تتمتع بقبول واسع بمبرر محاربة الإرهاب والتعصب الديني، وهي تمس مقدسات وكرامة مليار وثلاثمائة مليون مسلم موزعين في العالم، وليس عشرة ملايين نسمة كما هو حال اليهود، هذا الخطر هو ما يستدعي التفكير ويستدعي الحملات، لأنه قائم على معطيات ووقائع حقيقية، لا مجرد أكاذيب ومزاعم تركب عليها أسطورة "اللاسامية" من أجل الخداع.